دراسة المعجمات اللغوية

٢ — المصباح المنير

١٠٠ — وقال صاحب المصباح المنير في مادة ج ي ل : « الجيل : الأمة والجمع أجيال ، والجيل اسم لبلاد متفرقة ... » . ولم يذكر الجيل بمعنى « القرن » مع أنه يقول في قرن : « والقرن أيضاً الجيل من الناس ، قيل ثمانون سنة وقيل سبعون ، وقال الزجاج : الذي عندي — والله أعلم — أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبي أو طبقة من أهل العلم سواء قلت السنون [1] أو كثرت ، قال : والدليل عليه قوله عليه السلام (خير القرون قرني) يعني أصحابه (ثم الذي يلونهم) أي الذين يأخذون عن التابعين » .

١٠١ — وقال في ح ب ب عند الكلام على الحبيب : « وجمع المذكر أحباء ، وكان القياس أن يجمع جمع شرفاء ولكن استكره لاجتماع المثلين ، قالوا : كل ما كان على فعيل من الصفات فان كان غير مضاعف فبابه فعلاء مثل شريف وشرفاء ، وان كان مضاعفاً فبابه أفعلاء مثل حبيب وطبيب وخليل » .

قلت : كان ينبغي أن يقال في قاعدة هذا الجمع : « كل ما كان على فعيل بمعنى فاعل من الصفات » لأن مثل قتيل وجريح لا يجمع على « فعلاء » إلا شذوذاً ، ويقال أيضاً في تعليل الجمع : « استكره لاجتماع المثلين المتحركين في الجمع » وإلا فان المثلين مجتمعان في « أحباء وأخلاء » إلا أن أولهما ساكن ، فذهب بالتسكين بعض الثقل من اجتماعهما .

١٠٢ — وقال في ب ز ر : « والحب بالكسر : بزر ما لا يقتات مثل بزور الرياحين

---

(١) لعل الصواب « أم كثرت » ويجوز طرح أم يطرح سواء فيقال « قلت السنون أو كثرت » .

الواحدة حبة ، وفي الحديث : كما تنبت الحبة في حميل السيل . هو بالكسر » . وقد عدى « اقتات » بنفسه وهو فصيح إلا أنه لم يذكر ذلك في ق و ت ، فقد قال : « واقتات به : أكله » معدياً إياه بالباء .

١٠٣ — وقال في ح ب ر : « وحبرت الشيءَ حبراً من باب قتل : زينته وفرحته » . والضمير في « فرحته » يعود إلى الشيء ، ويصعب تصور تفريح الشيءِ وإن جاز أن يطلق على الانسان إطلاقاً كلامياً [1] ، فكان أحسن أن يقال « وحبرت الشيءَ حبراً ... زينته والانسان فرحته » .

١٠٤ — وجاء في المادة المذكورة « قال الأزهري : ليس حبرة موضعاً أوشيئاً معلوماً إنما هو وشي معلوم أضيف الثوب إليه كما قيل ثوب قرمز بالاضافة والقرمز صبغة ، فأضيف الثوب الى الوشي والصبغ للتوضيح » . ولم يذكر مؤلف المصباح « القرمز » في موضع مادته من مصباحه .

١٠٥ — وقال في ح ت ف « يقال مات حتف أنفه إذا مات من غير ضرب ولا قتل ، وزاد الصغاني : ولا غرق ولا حرق ... وهذه الكلمة تكلم بها أهل الجاهلية قال السموأل :

وما مات منا سيد حتف أنفه » .

قلت : أطبق رواة اللغة على أن النبي — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم — أول من قال هذه العبارة من العرب ، قال الشريف الرضي — رح — في كلامه على المجازات النبوية : « ومن ذلك قوله — عليه الصلاة والسلام — : مات حتف أنفه . وذلك مجاز لأنه

---

(١) قال مؤلف ش ي ء : « والشيء في اللغة عبارة عن كل موجود إما حساً كالأجسام أو حكماً كالأقوال نحو قلت : شيئاً » . ويستدل قول أبي هلال العسكري « من شر ما ألقاك أهلك : يضرب مثلا للرجل والشيء يتحامى ولا يقربه » « جمهرة الأمثال ص ١٩٩ من طبعة الهند » . فقد فرق بين الرجل والشيء .

جعل الحتف لأنفه خاصاً وهو في الحقيقة له عاماً ، لأن الميت [1] على فراشه من غير أن يعجله القتل إنما يتنفس شيئاً فشيئاً حتى ينقضي ذماؤه ، وتفنى حوباؤه ، فخص — عليه الصلاة والسلام — الأنف بذلك لأنه جهة لخروج النفس وحاول الموت ، ولا يكاد يقال ذلك في سائر الميتات حتى تكون الميتة ذات مهلة ، وتكون النفس غير معجلة ، فلا يستعمل ذلك في الميتة بالغرق والهدم وجميع فجأة الموت ، وإنما يستعمل في العلة المطاولة ، والميتة المماطلة ، وروي عن أمير المؤمنين عليّ — عليه السلام — أنه قال : ما سمعت كلمة غريبة [2] إلا وقد سمعتها من رسول الله — ص — وسمعته يقول : مات حتف أنفه ، وما سمعتها من عربي قبله [3] » .

أما الشطر الذي ذكره الفيومي ناسباً إياه إلى السموءل فهو من القصيدة اللامية المشهورة التي نحلها السموأل بعض ذريته من الرواة المدلسين ، وأدخل فيها ألفاظاً ظنها تعفي على التزوير كالأبلق الفرد ، وإنما القصيدة للحارثي الشاعر وسماه الصولي « زياد بن عبيد الله الحارثي [4] » ، قال الصولي : « ومما روى للسموأل وهو للحارثي :

تسيل على حد السيوف نفوسنا ... وليست على غير السيوف تسيل
يقرّب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد في فراشه ... ولا طُلّ منا حيث كان قتيل [5]

(١) كذا ورد في طبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٣٧ ولعل الأصل « المائت » لارادة الحدث .

(٢) في الأصل المطبوع « عربية » ولا محل لها ، لأن مقتضى العبارة في وجودها هو أن جميع ما سمعه من العرب من كلام قد تكلم به رسول الله — ص — وهذا غير معقول ، ولا فائدة فيه .

(٣) « المجازات النبوية » ص ٦١ » .

(٤) « أخبار أبي تمام » ص ٣٩ » .

(٥) « أخبار أبي تمام » ص ١٤٠ » .

وهذه الأبيات الثلاثة كافية في إدحاض نسبة القصيدة إلى السموءل ، ذلك أن الذي لا تسيل نفسه إلا على السيف ، ويقرّب حب الموت أجله ولا يموت على فراشه ، لا يتحصن كالسموءل ويخلي بين ابنه العزيز والقتل ، كائنة ما كانت الحجة التي احتج بها لذلك الانحجار الدال على الفرق من الحرب والموت ، والحرص على المهجة والاشفاق البالغ عليها .

وقد ورد اسم الحارثي بصورة « عبد الملك بن عبد الرحيم » في المطبوع من طبقات الشعراء لابن المعتز قال مؤلفه — ص ٢٧٦ — : « أخبار الحارثي واسمه عبد الملك بن عبد الرحيم ، حدثنا أبو مالك الأنصاري قال حدثني أبو الأسود الشاعر قال : كان الحارثي شاعراً مفلقاً مفوهاً مقتدراً مطبوعاً ، وكان لا يشبه بشعره شعر (كذا) المحدثين المحضرين ، وكان نمطه نمط الأعراب ... » . وبهذه الصورة ورد اسمه في هامش ديوان السموأل المخطوط المحفوظ في خزانة كتب المتحفة العراقية .

١٠٦ — وقال في ح ج ج : « حج حجاً من باب قتل : قصد فهو حاج ، هذا أصله ثم قصر استعماله في الشرع على قصد الكعبة للحج أو العمرة ومنه يقال : ماحج ولكن دجّ ، فالحج القصد للنسك ، والدج القصد للتجارة ... » . ولم يذكر « الدج » في مادته بل ذكر الدجاج وجمعه .

١٠٧ — وقال في ح ج ز : « وحجزة السراويل بجمع شده والجمع حجز مثل غرفة وغرف » وقد أعاد الضمير مذكراً إلى السراويل ، مع أنه قال في س ر و ل : « السراويل أنثى وبعض العرب يظن أنها جمع لأنها على وزان الجمع ، وبعضهم يذكر فيقول هي السراويل وهو السراويل ، وفرق في المجرد بين صيغتي التذكير والتأنيث فيقال هي السراويل وهو السروال ، والجمهور أن السراويل أعجمية وقيل عربية جمع سروالة تقديراً والجمع سراويلات » . فهو قد خالف الرأي الراجح الذي ذكره في أول المادة وهو تأنيث السراويل .

أما مسألة التأنيث والتذكير فتعرض على الواقع اللغوي وهو استعمال العرب ، فالذي

علمناه منه أنهم يؤنثون السراويل ، ومن ذلك المثل المشهور « من شرّ ما ألقاك أهلك » قال أبو هلال العسكري « من شر ما ألقاكِ أهلُكِ . يضرب مثلاً للرجل والشيء يتحامى ولا يقرب » وذكر خبر غزو العرب للأبلة المدينة التي كانت على فوهة النهر المضاف اليها المعروف اليوم بنهر الطورة ، قال : « وأصاب رجل سراويل فلم يحسن لبسها فرماها وقال : أخزاك الله من ثوب فما تركك أهلك لخير ، فجرى المثل ثم قيل : من شرّ ما ألقاك أهلك[1] »، فقوله « فلم يحسن لبسها فرماها » يدل على تأنيثها .

وذكر المبرد أن ملك الروم بعث الى معاوية رومياً طوّالاً ليطاول به العرب ، فوجه الى قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي قال المبرد : « فلما مثل بين يدي معاوية نزع سراويله فرمى بها إلى العلج فلبسها فسالت ثندوته ، فأطرق مغلوباً ، فحدثت أن قيساً لام في ذلك فقيل له : لم تبذلت هذا التبذل بحضرة معاوية ؟ هلا وجهت الى غيرها فقال :

أردت لكيما يعلم الناس أنها ... سراويل قيس والوفود شهود
وأن لا يقولوا غاب قيس وهذه ... سراويل عاديّ تمته ثمود[2]

وضمير السراويل والإشارة إليها مؤنثة ، وذكر الجواليقي أن « السروال » أعجمي معرب قال أولاً في باب معرفة مذاهب العرب في استعمال الأعجميّ : « وقالوا : سراويل وإسماعيل ، وأصلها شروال وإشماويل ، وذلك لقرب السين من الشين في في الهمس[3] » . ثم قال : « وكذلك السراويل[4] » وفي لسان العرب عن الليث أن « السراويل » أعجمية أعربت وأنثت والجمع سراويلات ، وذهب بعضهم الى أن سراويل جمع سروالة ، ونقل عن الأزهري قوله : جاء السراويل على لفظ الجماعة وهي واحدة ،

(١) جمهرة الأمثال ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .
(٢) الكامل في الأدب ، ٢ : ٩٤ طبعة المطبعة الأزهرية بالقاهرة .
(٣) المعرب ، ص ٢ ، ولا يزال العراقيون يسمونها « الشروال » بالشين المعجمة .
(٤) هو ، ص ١٩٦ .

قال : وقد سمعت غير واحد من الأعراب يقول : سروال » وجاء في الجمهرة لابن دريد « ٣ : ٤٨٧ » . « قال أبو زيد العرب تؤنث السراويل وهي اللغة العالية فمن ذكّر فعلى معنى الثوب »[1] . وقد ورد تذكيرها في رحلة ابن فضلان في العشر الأول من المئة الرابعة من الهجرة[2] .

والواقع اللغوي الذي هو سبيلنا في مثل هذا الأمر أقوى من كل استدلال آخر ، ومن الأدلة على كون « السراويل » أعجمية أنها لم تذكر في عصور الجاهليـة ، فالظاهر أن العرب لم يستعملوها في ذلك العصر ، ونرى أن جمعها ناشىء من كونها ذات شعبتين للرجلين وقسم جامع بينهما فاليمنى سروال واليسرى سروال والجامع بينهما سروال فهي سراويل ، والسروال يشبه السربال في اللفظ ، وتعاقب الواو والباء معروف مألوف في لغة العرب ، إلا أنّهم ميزوا بينهما فقالوا : « السربال ما يلبس من قميص أو درع والجمع سرابيل ، وسربلته السربال فتسربله بمعنى ألبسته إياه فلبسه » كما جاء في المصباح المنير ، والسربال كان معروفاً عند العرب في عصر الجاهلية له فعل مستعمل حقيقة ومجازاً لتقدم زمان استعماله ، وعرّفت جماعة من اللغويين السربال بأنه كل ما يلبس ، فعلى هذا يجوز أن يعد « السروال » لغة في « السربال » ويبطل الظاهر الذي أشرنا اليه من كون السراويل غير معروفة في عصر الجاهلية .

١٠٨ — وقال في ح ج م : وأحجمت عن الأمر ، بالألف : تأخرت عنه ، وحجمني زيد عنه ، في التعدي ، من باب قتل ، عكس المتعارف ، قال أبو زيد : أحجمت عن القوم إذا أردتهم ثم هبتهم فرجعت وتركتهم » ، قلت : قوله عكس المتعارف ، يعني في كون

---

(١) راجع حواشي شارح المعرب « ص ١٩٦ » .

(٢) رحلة ابن فضلان « ٨٧ طبعة الدكتور سامي الدهان » ، قال : « وسراويل طاق وآخر مبطن » .

الهمزة معدية للثلاثي وكون الثلاثي لازماً لأن رباعيه يحتمل الهمزة ، والصحيح أن الثلاثي ها هنا متعد في الأصل ، فالهمزة إذن لغير التعدّي ، قال هو في خاتمة المصباح : « وقد جاء قسم تعدّى ثلاثيه وقصر رباعيه عكس المتعارف نحو أجفل الطائر وجفلته ، وأقشع الغيم وقشعته الريح ، وأنسل ريش الطائر أي سقط ونسلته ، وأمرت الناقة : درّ لبنها ومريتها ، وأظأرت الناقة إذا عطفت على بوها وظأرتها ظأراً : عطفتها ، وأعرض الشيء إذا ظهر وعرضته : أظهرته ، وأنقع العطش : سكن ونقعه الماء : سكّنه وأغاض النهر وخضته ، وأحجم زيد عن الأمر : وقف عنه ، وحجمته ، وأكب على وجهه وكببته ، وأصرم النخلُ والزرع وصرمته أي قطعته ، وأمخض اللبن ، ومخضته ، وأثلثوا إذا صاروا بأنفسهم ثلاثة وثلثتهم : صرت ثالثهم ، وكذلك الى العشرة ، وأبشر الرجل بمولود : سُرّ به وبشرته » ، والغريب في الأمر أن المؤلف — رح — ذكر ثلاثياً لازماً لأبشر إبشاراً قال : « بشر بكذا يبشر مثل فرح يفرح وزناً ومعنىً » ... والمصدر البشور ويتعدى بالحركة فيقال بشرته أبشره بشراً من باب قتل في لغة تهامة وما والاها ، والتعدية بالتثقيل لغة عامة العرب وقرأ السبعة باللغتين » ولم يذكر « أبشر » الرباعي ، وذكر « ثلثتُ الرجلين من باب ضرب : صرتُ ثالثهما » لا ثالثهم كما قال في الخاتمة مع أنه الصواب ، ولم يذكر « أثلثوا » الرباعي ، ولم يذكر في « ظأر » ظأرت الناقة ظأراً أي عطفتها ولا أظأرت هي إظآراً بل قال « وظأرتُ أظأر بفتحتين : اتخذت ظئراً » . ولم يذكر في ذ ق ع أنقع العطش بمعنى سكن ولا نقعه الماء بل قال : « أنقعت الدواء وغيره إنقاعاً : تركته في الماء حتى انتقع ... ونقع الماء في منقعه نقعاً من باب نفع : طال مكثه فهو ناقع ونقيع » ، ولم يذكر في « مرى » أمرت الناقة ولا مريتها .

وفي الحق أن أكثر ما ذكره الفيومي في هذا الأمر داخل في أبواب القياس ، فالهمزة أتت في قسم مما ذكر للصيرورة كأصرم النخل أي دنا صرامه ألا تراه هو نفسه يقول في

مصباحه : « وصرمت النخل : قطعته ، وهذا أوان الصرام بالفتح والكسر ، وأصرم : النخل : حان صرامه » ، فقوله «حان صرامه » يفيد المبنونة وهذا مقيس ومثله « أحصد الزرع أي حان حصاده » قال هو في كتابه : « حصدت الزرع حصداً من باب ضرب وقتل فهو محصود ... وهذا أوان الحصاد والحصاد وأحصد الزرع بالألف واستحصد إذا جاء حصاده » . فهل هذا مستدرك عليه ؟

وأتت الهمزة للدخول في أفعال الأمكنة وما يختص بها ، كأعرض الشيء أي دخل في العرض أو حصل فيه ، فهو يقول في مصباحه : « وأعرضت في الشيء بالألف : ذهبت فيه عرضاً وأعرضت عنه : أضربت وليت عنه ، وحقيقته جعل الهمزة للصيرورة (كذا) أي أخذت عرضاً أي جانباً غير الجانب الذي هو فيه ، وعرضت الشيء عرضاً من باب ضرب فأعرض هو بالألف أي أظهرته وأبرزته فظهر هو وبرز ، والمطاوع من النوادر التي تعدّى ثلاثيها وقصر رباعيها عكس المتعارف » ، والحقيقة أن « أعرض » معناه دخل في عرض المكان أو وقف في عرضه ، والجائي طولاً يرى الداخل أو الواقف عرضاً ، ومنه عرض له أي وقف له في عرض الطريق ، وتعرض له أي كرر الوقوف له فيه .

ومقتضى قول الفيومي إن الهمزة في « أعرض » للصيرورة غير صحيح لأن الصيرورة كالكينونة قال الزمخشري في المفصل : « وأفعل للتعدية في الأكثر نحو أجلسته وأمكنته وللتعريض للشيء ... أو لصيرورة الشيء ذا كذا نحو أغدّ البعير إذا صار ذا غدة وأجرب الرجل وأنحز وأحال أي صار ذا جُرب ونحاز وحيال في ماله ومنه ألأم وأراب وأصرم النخل وأحصد الزرع وأجزّ ومنه أبشر وأفطر وأكبّ وأقشع الغيم [1] » ، فهل يكون معنى « أعرض الشيء : صار ذا عرض » ؟ هذا المعنى غير مُراد البتة . وقد اعترف الفيومي بأن الهمزة أتت للقبول ، قال : « خاض الرجل الماءَ يخوضه خوضاً : مشى فيه ... وأخاض

(١) المفصل ، ص ٢٨٠ طبعة مطبعة التقدم بمصر » .

الماء بالألف : قبل أن يخاض وهو لازم على عكس المتعارف ، فانه من النوادر التي لزم رباعيها وتعدّى ثلاثيها » والصحيح أنه قياسي فلا يصح كونه من النوادر ، وهو من نوات همزة الدخول في المحال كأخاض وأحجم وأباس أو في المكان وتوابعه كأعرق وأشأم وأنجد وأعرض ، أو في الزمان كأصبح وأحصد وأمسى أو في الحصول على الشيء كأورق وأجرب وأظأرت الناقة .

١٠٩ — وقال في ح دا : « وحدوته على كذا : بعثته عليه »، ولم يذكر في ب ع ث « بعثته عليه » مع اشتهاره واستعماله إياه ، تقول : « حمله على الأمر وحرضه عليه وحداه عليه » بمعنى واحد على التقريب .

١١٠ — وقال في « ح دا » : « والحذاء مثل كتاب : النعل وما وطىء عليه البعير من خفه والفرس من حافره » . ولم يذكر في « وط أ » تعدية الفعل بعلى بل قال : « وطئته برجلي أطؤه وطأ : علوته ويتعدى إلى ثان بالهمزة فيقال : أوطأت زيداً الأرض » وهو أي وطىء عليه من عبارات الصحاح ، وقد فسر المبارك بن الأثير الحذاء بالنعل في هذا الموضع قال : « وفي حديث ضالة الابل : معها حذاؤها وسقاؤها : الحذاء بالمدّ النعل ، أراد أنها تقوى على المشي وقطع الأرض وعلى قصد المياه ووردها ورعي الشجر والامتناع من السباع المفترسة ، شبهها بمن كان معه حذاء وسقاء في سفره وهكذا ما كان في معنى الابل من الخيل والبقر والحمير » . والواقع اللغوي يدل على أن نعل تلك الحيوانات كانت من جلد حيوان أو حديد، فللابل الجلد ، وفي الصحاح « النعل: الحذاء ، مؤنثة وتصغيرها نعيلة ، تقول : نعلت وانتعلت ، إذا احتذيت ... وأنعلت خفي ودابتي » . وفي لسان العرب « والتنعيل : تنعيلك حافر البرذون بطبق من حديد ، يقيه الحجارة ، وكذلك تنعيل خف البعير بالجلد لئلا يحفى ، ونعل الدابة ما وقي به حافرها ، قال ابن سيده : أنعل الدابة والبعير ونعّلها » . وقال الشريف الرضي : « وقد نهى

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أخذ ضوال الابل وهواميها ، والهوامي الضائعة ، قال الشاعر :

همت نعلها بالسيلحين وأوفضت   بوادي تميل عن جبين مشيد [1]

أي ضاعت نعل [2] هذه الناقة بهذا الموضع المذكور ، وذلك لا يكون إلا عند تقطع هلبها وإجحاف السير بها [3] » . ذكر الشريف الرضي ذلك عند شرحه مجاز قول الرسول ـ ص ـ : « ضالّة المؤمن حَرَقُ [4] النار » قال الزمخشري : « النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له رجل : يا رسول الله ، إنا نصيب هوامي الابل ، فقال : ضالة المؤمن حَرَقُ النار » . ثم قال الزمخشري : « الحرق اسم من الاحراق كالشفق من الاشفاق ، وعن ثعلب : الحرق اللهب ، ويقال للنار نفسها حرق ، يقول : هو في حَرَقِ الله ، قال : شدة سريعاً مثل إضرام الحرق . يعني أن تملكها سبب العقاب بالنار » [5] .

« له صلة »   مصطفى جواد

---

(١) جاء في مطبوع المجازات النبوية ـ ص ١٩٤ ـ « همت بنقلها بالسيلحين وأوفضت » ، ومع إصلاحي لبعضه لست على بينة من صحة جميعه .

(٢) في المطبعة « بغل » وهو تصحيف ثان للنعل .

(٣) المجازات النبوية « ص ١٩٤ طبعة مصر » .

(٤) ضبطها المرحوم الشيخ محمود مصطفى مدرس الأدب بكلية اللغة العربية في الأزهر ، بتسكين الراء والصواب فتحها .

(٥) الفائق « ٣ : ٢١٣ من طبعة مصر » .